جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصادقيّة

د. أحمد عبد السّلام

في 24 ديسمبر 1905 أذن الوزير الأكبر محمد العزيز بوعتّور بتكوين "جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة" التي كان قانونها الأساسي قد عرض قبل ذلك بيوم على وكيل الجمهوريّة الفرنسي وعلى المراقب المدني بتونس. والسرعة التي تمّ بها ذلك الإذن دلت على أن الذين التمسوه كانوا قد تحصلوا مسبقا على موافقة سلط الحماية وعلى رأسها المقيم العام ستيفان بيشون *Stephen Pichon*.

وقد فتحت هذه الجمعيّة الجديدة بقانونها الأساسي وببرامج نشاطها مجالات متعددة للتونسيين الذين تخرجوا حتى ذلك التاريخ من المدرسة الصادقيّة وكان عددهم زهاء الستمائة "وكان أغلبهم يشغلون وظائف إداريّة هامّة" بينما "كان أفراد منهم قد تحصلوا على مكانة معتبرة في مسالك الخطط الحرّة". تلك هي بعض الجمل التي وردت في التقرير الذي حرره ونشره في عام 1906 علي باش حانبه مقرر "لجنة المبادرة". وقد أضاف ما يلي:"نعتزم أن نجعل لجمعيّتنا نشاطا يرمي إلى غايات تتناسب وما يمكن أن يرتجى من مثل تلك النخبة". وفعلا اشتمل التقرير المذكور في صفحاته الثمانية على الآراء التي يتأسس عليها نشاط جمعيّة ثقافيّة وأيضا على الاتجاه الذي ساد الحركة التي عرفت بعد ذلك بحركة "الشبّان التونسيين" "والتي كان مؤسسوها" أبرز أعضائها وكانت جريدة "التونسي" لسانها.

وقد كان تقرير لجنة المبادرة متأثرا بمواقف علي باش حانبه في بداية خوضه لمعترك الحياة العامّة عندما أصدر الأعداد الأولى من جريدة "التونسي" وقبل أن يصادمه واقع نظام الحماية فيقدر تقديرا أو في مقتضيات الكفاح الوطني. وقد اتصف تفكير علي باش حانبه حتّى في ذلك الطور المبكر بالسمو وبسعة الآفاق وبالتمسك بالمبادئ مع الحرص على العمل الجدّي. وكانت مقالاته راقية العبارة رغم بعض المصطلحات التي نستغربها اليوم وتبدو أقرب إلى أن تتضمنها خطب مقيم عامّ ممن توالوا بتونس في تلك الفترة. فعندما يتحدث علي باش حانبه عن المدرسة الصّادقيّة يقول مثلا: " كان هذا المعهد همزة وصل بين فرنسا الحتمية وتونس المحميّة، وكان المعين الذي استخرجت منه حكومة الحماية الموظفين الذين أمكن بإعانتهم إعادة تنظيم إدارة الإيالة وأمكن لتلامذة هذه المدرسة بمعرفتهم للّغة الفرنسيّة أن ييسّروا الوفاق بين العنصرين المتساكنين بل أن يجعلوه ممكنا. ومازالوا يقومون بهذا الدور الهامّ".

فبتأسيس "جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة" لم يقصد علي باش حانبه وأصدقاؤه معارضة نظام الحماية. بل كانت غايتهم من جهة "تغير عقليّة التونسيّين لتمكينهم من العيش مع مختلف الأجناس التي وفدت إلى بلادنا"، ومن جهة أخرى إزالة الاحترازات المسبقة التي تفرق بين التونسيين والفرنسيين وإحلال التقدير المتبادل مكانها. وكانت السياسة التي يساندها علي باش حانبه في تلك الفترة هي "سياسة المشاركة" وكان هذا المصطلح في أوائل القرن العشرين الميلادي يقابل في لغة جرائد فرنسا والجزائر مصطلحي "الاستغلال" و "الإدماج". وكانت "سياسة المشاركة" تتضمّن معنى العقد وتقضي التعاون على عمل مشترك يستفيد منه المستعمر والمستعمر.

"برنامج نشاط "جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصادقيّ

اقترح علي باش حانبه على "جمعيّة قدماء تلامذة الصادقيّة" برنامج نشاط استمد روحه الإصلاحية من الأهداف التي رسمها خير الدين للمدرسة في أمر تأسيسها الصادر في عام 1875م ومن الدور الذي كان للصادقية في الثلاثين سنة التي مرّت من حياتها. وألح محرر تقرير "لجنة المبادرة" على الثورة التي أحدثها ذلك الوزير المصلح عندما أدخل في برنامج التعليم بالمدرسة الصادقيّة اللغات الأجنبيّة والعلوم العقليّة كما أكّد علي باش حانبه أن إنشاء مكتبة وإلقاء محاضرا تحفظ صلة الصادقيين بالثقافة. أمّا التلامذة المزاولون لتعليمهم فقد خصصت لهم الجمعيّة جوائز تشجيعيّة كما خصصت منحا لمن أراد منهم متابعة دراسته في معاهد التعليم العالي.

وبالإضافة إلى هذه المساعدة المادية والأدبية لتلامذة المدرسة ولقدمائهم كانت للجمعيّة غاية أخرى هي المحافظة لدى "الصادقيين" على الاتجاه الإصلاحي الذي كونه فيهم التعليم الذي تلقونه في المدرسة والعمل على نشر ذلك الاتجاه بين فئت أخرى من المجتمع التونسي. وقد تجلّى هذا القسم من نشاطهم على مستوين: مستوى وقعت العناية فيه بالمثقفين الذين يرغبون في تنمية معارفهم دون تمييز بين التونسيين وغير التونسيين. فلغير التونسيين نظمت دروس في العربية تختلف في طرقها عن تعليم الجامع الأعظم الذي كان يلقى في معاهد دينيّة وتختلف أيضا عن دروس الترجمة التي أسستها حكومة الحماية لموظفيها. بل كانت دروس "جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة" تشبه في مناهجها التعليم الذي انتشر فيما سمي في مصر بـ"المدارس الاميرية" وكانت تلقى بجانب ذلك محاضرات في

مواضيع شتّى من علم ومن أدب ومن فلسفة واجتماع مخصصة لأعضاء الجمعيّة ولضيوفهم ومدعويهم.

أمّا المستوى الثاني فهو المستوى التثقيفي العام المتجه إلى الشعب لإطلاعه على مبادئ العلوم وقواعد الصحة وتنبيه إلى أخطار الأمراض والآفات الاجتماعيّة وتقوية نزعات الخير فيه وحب الغير والتسامح في النفوس. وهذه الدروس كان من المزمع أن تلقى في الأحياء المختلفة مع دروس أخرى في تعليم القراءة والكتابة والحساب يقوم بها المعلمون من "متطوّعي" الجامع الأعظم "وخرّيجي "المدرسة التأديبيّة".

وهكذا لم يقتصر برنامج نشاط "جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة على أولائك الصادقيين بل رمى إلى تشريك غيرهم من المثقفين في تونس. ومن الناحية القانونيّة أمكن ذلك بإنشاء لجان نشاط مفتوحة لجميع المثقفين بجانب هيئة الجمعيّة التي كانت مركبة من "قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة" دون غيرهم.

"نشاط "القدماء

في السنوات الثماني الأولى من وجودها أي من عام 1906 إلى 1913م حاولت "جمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة" إنجاز ما وعد به قانونها الأساسي وكان مركز نشاطها مقرها في شارع باب البنات في مبنى وضعته تحت تصرفها إدارة المدرسة الصادقيّة مع منحة سنويّة قدرها ألفا فرنك اقتطعت من الرصيد المخصص في ميزانية المدرسة لإعانة قدماء تلامذتها المزاولين لتعليمهم العالي. فكان من الطبيعي أن تنفق الجمعيّة قسما من أموالها في تنظيم دروس في الأدب الفرنسي وفي الفلسفة وفي اللغة اللاتينية وغيرها من المواد التي احتاج إليها عدد من أعضائها لاجتياز امتحان الباكالوريا ولدراسة

القانون الفرنسي بعد ذلك، وهو من أشـار إليـه منشـور مـؤرخ فـي 28 ديسـمبر 1913 وممضـى مـن طـرف خيـر الله بـن مصـطفى رئيـس الجمعيّة منذ تأسيسها إلى سنة 1914.

ويضيف نفس المنشور: أما عـن المسـامرات الـتي لـم تنجـح إلا نجاحـا محدودا لأسباب يطول شرحها فقد استطاعت الجمعيّـة أن تجعـل فـي متناول الطبقة الكادحة التونسيّة، التي تغلب على أفرادها الأميّة،مبـادئ من حفظ الصحة ومن نتائج العلوم ومن الآراء العصريّة.

وقـد ألقيـت فـي مقـر الجمعيّـة عـدة محاضـرات حضـرها أعضـاؤها وأصــدقاؤهم مــن الفرنســيين والتونســيين. وقــد "اســتنفدت هــذه المحاضرات موارد الجمعيّة الماليّة، فلم تستطع- ويا للأسـف – التوسـع في القيام بالعمل التضامني المذكور فـي قانونهـا الأساسـي لكنهـا قـد مدت يد المساعدة لأفراد من أعضائها"

وجاء في خاتمة المنشور المذكور مـا يلـي: " طبقـا لقانونهـا الأساسـي كانت سياسة الجمعيّة العمل لتقارب عناصر المجتمع التونسـي المختلـة ولإيجاد الوفاق بينها. وقد تحصلت بذلك على رضا بعضهم وحتّى الـذين لم تنجح في امتلاك قلوبهم فقد منحوها مهادنة خالطها العطف".

وقد زار مقر الجمعيّة في تلك المدة محاضرون فرنسيون أمثـال مـارك سانيي Marc Sangnier مؤسس حركـة "خـط المحـراث Le sillon الـذي ألـف إضـافة إلـى قصـص وشارل جينيـو Charles Géniaux عديدة كتابا عن "الشبّان التونسيين" أظهر فيه كـثيرا مـن الميـل إليهـم، صديق علي باش حانبه وقد صدرت لـه والحكيم برزون Dr. Burzon وقد ألقيت بمقر الجمعيّة "مقالات في جريدة "التونسي Le Tunisien" محاضرات باللغة العربيّة اضطلع بها ابرز أسـاتذة جـامع الزيتونـة أمثـال

محمد النخلي أحد أنصار حركة الشيخ محمد عبـده وأحـد الـداعين إلـى إصلاح التعليم الديني في تونس وأمثال محمد الطاهر ابن عاشور الذي تولّى بعد ذلك بسنوات عديدة مشيخة الإسلام وإدارة الجامعة الزيتونيّـة والشيخ محمد الخضر بن الحسين الذي انتقـل بعـد ذلـك إلـى القـاهرة حيث بلغ مشـيخة الجـامع الأزهـر. وبانتسـاب محاضـريها إلـى أوسـاط مختلفة أقامت الجمعيّة الدليل على أنّها لم تكن مقصـورة علـى نشـاط تلامذة المدرسة الصادقيّة بل كانت مفتوحة للاتجاهـات المختلفـة الـتي كانت تتقاسم المجتمع التونسي أو على الأصح نخبة ذلـك المجتمـع لأن نتائج نشاطها في تبسيط العلوم وجهلها في متنـاول الطبقـات الكادحـة كانت ضئيلة كما رأينا.

وقد كانت الجمعيّة ترجـو مـن تثقيـف الجمـاهير "بنشـر الآراء العصـرية ومبادئ العلوم" أن تحبـب إليهـم العمـل ومختلـف وجـوه النظـام حتّـى يتطوروا بسرعة ويبلغوا مستوى يتلاءم مـع مقتضـيات العصـر ويمكنهـم من النجاح في الكفاح من أجل الحياة الذي كان كل يوم يـزداد ضـراوة في بلادهم

إنّ التقـارير الـتي حررهـا مؤسسـو "جمعيّـة قـدماء تلامـذة المدرسـة الصّادقيّة" يدل محتواها على أنهم كانوا يعتقـدون أن مهمتهـم الوطنيّـة النابعة عن تكوينهم وعن الثقافة التي تلقوها فـي المدرسـة الصـادقيّة إنّما هي العمل على تغيير تفكير مواطنيهم حتّى لا يبقوا ضـعفاء تجـاه التغييرات التي حدثت في بلادهم وفي العالم. وقد دعوا زملاءهم مـن قدماء الصادقيين إلى عدم الاستسلام إلى تأثير الوسط الـذي يعيشـون فيه والذي كان لا يحثهم على النشاط وساعدوا أيضـا الفرنسـيين الـذين لم يجدوا من يشجعهم علـى الاختلاط بـالمجتمع التونسـي علـى عـدم الانسياق مع الأحكام المسبقة. وقـد تأسـس نشـاط قـدماء الصـادقيين

هذا على اقتناعهم بأن أصل جميع الأدواء الجهل وأن التقدم ينتـج عـن المعرفة وأن الصعوبات يذللها الإخلاص والمثابرة.

ومن قدماء تلامذة المدرسة الصادقيّة من لم يتحل بالأناة والصـبر فـي علاقتهم مع تلامذة جامع الزيتونة الذي كانوا يقبلون أفواجـا علـى مقـر الجمعيّـة مـدفوعين بحـب المعرفـة فيملـؤون قاعـة المحاضـرات قبـل موعدها. فلا يجد عدد من قدماء تلامذة الصادقيّة مقعـدا ولا مكانـافي مقـر جمعيّتهـم ويظهـرون تضـايقهم مـن ذلـك. وآل الأمـر إلـى غضـب الزيتونيين فأجابوا دعوة جريـدة "الصـواب" واجتمعـوا سـنة 1907 فـي مقر الجمعيّة الخلدونيّة واتفقـوا علـى تأسـيس "جمعيّـة تلامـذة جـامع الزيتونة". إلاّ أنهم انقسموا بيـن مشـائخ وطلبـة فقـدموا إلـى الحكومـة مطلبين وقانونيين أساسـيين لـم تقبـل السـلط أحـدهما، ومـالت حركـة الطلبة إلـى التصـلب فطـالبوا ف عـام 1910 بإصـلاح التعليـم الزيتـوني وشنّوا إضرابات لذلك فساندتهم الهيئة المديرة "لجمعيّـة قـدماء تلامـذة المدرسة الصادقيّة". وعنـدما تحصـلوا فـي أواخـر أفريـل 1910، وبعـد إضراب دام اثني عشـر يومـا – علـى إطلاق سـراح زملائهـم المعتقليـن اجتمعوا بمقر"جمعية قـدماء تلامـذة المدرسـة الصّـادقيّة" للتعـبير عـن سـرورهم بهـذا الانتصـار. وهكـذا تجـاوز الصـادقيون والزيتونيـون فـي خضم حركات الاحتجاج والمطالبة جميع مظاهر الخلاف التي سلفت.

وفي سنة 1911 اهتمّ التونسيون كل اهتمام بالأحداث التي وقعت في العالم الإسلامي وبالخصـوص فـي ولايـة طرابلـس المجـاورة فأثـارت فيهم الشعور بالتضامن الإسلامي والموالي للعثمـانيين الـذي كـان فـي مقدمة المعبرين عنه محررو جريدة "التونسي" مـن قـدماء الصـادقيين يتزعمهم علـي بـاش حـانبه. وقـد أثـار وقـوفهم ذلـك الموقـف غضـب الجرائد الاستعمارية. أما مجزرة الجلاز في سنة 1911 والإضـراب عـن

ركوب "الترمفاي" في فيفري سنة 1912 فقد تبعهما قمع أفضى بعدد من قدماء الصادقيين إلى المنفى ونتج عنه ضعف نشاط "جمعيّة قدماء تلامذة الصادقية" وقد انقطع ذلك النشاط بعد سنتين بسبب الحرب العالميّة الأولى ودام ذلك الانقطاع حوالي عشر سنوات منيت فيها الجمعيّة بتهديم ناديها فنقلت مكتبها وأوراقها إلى مقرّ "الجمعيّة الخلدونيّة".

وفي ديسمبر 1923 انعقدت جلسة عامة لجمعيّة القدماء تمّ فيها انتخاب محمد الأصرم رئيسا لها، وقد اضطر بعد ذلك إلى الاستعفاء لأسباب صحية أدت إلى وفاته في سنة 1925. وقد خلفه في رئاسة الجمعيّة محام شاب من خريجي المدرسة الصادقيّة في عام 1911، وهو مصطفى الكعاك.

واكترى المسؤولون الجدد عن الجمعيّة ناديا جديدا لها في نهج السيد عجولة في قلب مدينة تونس العتيقة ونقلوا إليه المكتبة ونظموا فيه مسامرات باللغتين العربية والفرنسيّة تناولت مواضيع شتّى أدبية وعلميّة كالحديث عن المسرح عموما والمسرح اليوناني أو مسرح شكسبير على الخصوص وكالتعليم والتشريع الإسلامي ومنزلة المرأة ومرض السل وغير ذلك من المواضيع. وأقيم بمقر الجمعيّة ناد أدبي شارك فيه بانتظام شعراء كالشاذلي حزنه دار ومصطفى آغة ووزعت فيه الجوائزفي شبه عكاضيات كما زاره فنانون مصريون مروا بتونس في مناسبات عدة. وأقامت الجمعيّة أيضا حفلات موسيقية لفائدة صندوقها ومشاريعها، وقامت هيئة الجمعيّة بزيارة مجاملة إلى الباي وإلى المقيم العام وقد أسند إليهما قانون الجمعيّة الأساسي سامي الإشراف عليها. ولم يمنع هذا الولاء للسلط المسؤولين عن الجمعيّة من بذل نشاط حثيث في عامي 1924 و 1925 للدفاع عن المدرسة

الصادقية حتّى تحافظ على خصوصياتها وتنمي تعليمها نموا يوافـق مـا يصبو إليه التونسيون.

ومن عام 1924 إلى عام 1934 واصلت الجمعيّة ذلك النشـاط برئاسـة مصـطفى الكعـاك حتّـى سـنة 1931 والطـاهر صـفر (عـامي 1931و 1932) ومحمـد المـالقي (1932-1933) ومحمـد بورقيبـة (1933 – 1934) ومحمد علي العنّابي (1934 – 1954) وهي فترة يتصل فيها هذا الاستقرار في رئاسة الجمعيّة بانصراف عـدد مـن الصـادقيين إلـى الكفاح السياسي.

الاهتمام المتزايد بالسياسة

ومع ذلك أنشأ قدماء المدرسة الصادقيّة بعد عام 1930 عـدة مشـاريع ذات فائدة قومية. ففي جويلية 1931 كان لهم فضل المبادرة بتأسـيس "جمعيّة أحباء الطلبة" التي كان مقرها الأساسي في 13 نهج دار الجلد حيـث اسـتقرت جمعيّـة قـدماء الصـادقيّة. وقـد عملـت هـذه الجمعيّـة الجديدة على تلافي النقص الذي لوحظ في المنح والقـروض الشـرفيّة التي كانت إدارة التعليم العمومي تمنحها للطلبة التونسيين. وكـانت فـي سنواتها الأولى تقيم الحفلات وتجمع التبرعات، فاجتمع لها في السنوات الأربع الأولى من وجودها 480.000 فرنـك لـم يتجـاوز نصـيب المنحـة الحكوميّة منها 89.500 فرنـك. وبعـد الحـرب العالميّـة الثانيـة اشـتركت "جمعيّة أحباء الطلبة" مع منظمات أخرى في تنظيـم حملـتين قوميـتين للدعاية وجمع الإعانات لفائدة الطلبة والتلامذة وأطلق على الأولى في مارس 1946 عنوان "نصف شهر الطالب التونسي" وعلـى الثانيـة، فـي 1947، اسـم "يـوم العلـم". وجمـع فـي "يـوم العلـم" مـا يقـرب مـن 3.000.000 فرنك وزعت منها منـح للطلبـة وإعانـة للمطعـم الجـامعي

الذي كانت تشرف عليه "جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين" في 115 شارع سان ميشال بباريس.

ومن الجمعيات النشيطة التي تأسست بإشراف "جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقية" "الشبيبة المدرسيّة" التي شارك فيها تلامذة المعاهد الثانويّة التونسيّة. وكان نشاطهم الثقافي والترفيهي فيها لا يخلو أحيانا من اتجاه سياسي وطني. وقد تم تأسيس هذه الجمعيّة الفتيّة في 19 ديسمبر 1934 بإيعاز من المرحوم الطاهر صفر الرئيس السابق "لجمعيّة قدماء تلامذة المدرسة الصادقيّة" والأمين العام المساعد للحزب الحرّ الدستوري الجديد.

وبصورة عامة كانت الأنشطة التي آواها – في العشريات السابقة للاستقلال – مقرّ " جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصّادقيّة" في نهج دار الجلد ذات اتجاه سياسي لا ينكر، رغم ما كان يعلنه بعض مسؤولي "القدماء" من أن جمعيتهم "لا تشتغل بالسياسة" ومن هذه الأنشطة ذات النزعة السياسية إنشاء لجنة "للدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني" سنة 1948 لجمع التبرعات والتشجيع على التطوّع أثناء الحرب الأولى للدفاع عن فلسطين، واجتماعات أولياء التلامذة وغيرهم للاحتجاج على القمع الذي سلط على تلامذة المعاهد الثانوية المضربين عن الدروس في سنة 1938 ثمّ في سنة 1952. وكان مقر جمعيّة القدماء مفتوحا للعديد من الحركات الاحتجاجية التي عضدت بين 1952 و 1954 كفاح الوطنيين التونسيين في معركته الخيرة قبل الاستقلال.

إن هذا التطور الذي أفضى بنشاط "جمعية قدماء تلامذة المدرسة الصادقيّة" إلى مواكبة الحركة السياسية الوطنيّة قد كان ولا مناص منه لاتفاق هذه وذاك في أشخاص المسؤولين الذين قاموا بهما.فقد

تحول اهتمام علي باش حانبة بالثقافة بعد سنوات إلى عمل سياسـي. أما بورقيبة وزملاؤه كالطاهر صفر وعلي البلهوان فقد كانت غايتهم من أول وهلة سياسية واندرجت الثقافة فيها بصورة طبيعية.

ومن عـام 1954 أصـاب "جمعيّـة قـدماء تلامـذة المدرسـة الصـادقيّة" سبات لم تخرج منه إلاّ في مناسبات قليلة أبرزهـا الاحتفـال عـام 1956 بمرور خمسين عاما علـى تأسيسـها. وكأنهـا شـاركت أغلـب الجمعيّـات الثقافيّة التونسيّة في الاتكال على الدولة في تنشيط الثقافة. و أملنـا أن تكون مظاهر عودة الجمعيّة إلى النشاط التي لوحظت منذ أعوام قليلة دليلا على حيوية جديدة يرجى منها الخير.

المجلّة الصّادقيّة عـ 39ـــدد أكتوبر 2005 – ص 4

«المدرسة الصادقية والصادقيون»

د. أحمد عبد السّلام – بيت الحكمة/قرطاج

تونس 1994، ص.ص: من 69 إلى 78.